دلالات محاكمة الثعالبي وخلفيات سنة 1904

عبد المجيد كريم*

تعتبر هذه المحاكمة حدثا هاما لأنها:

- تلقى أضواء على حياة الثعالبي الأولى أي في فترة الشباب وهي فترة غير معروفة نسبيا (بعد 1920) ولو أنه ظهرت الآن بعد الدراسات الجيدة حول هذه الفترة.

- تبرز القوى الفكرية والثقافية الفاعلة في المجتمع التونسي في بداية هذا القرن والتيارات المتناقضة التي كانت تشقّه خاصة على مستوى النخب.

I - الإطار السياسي والثقافي الديني للمحاكمة

هذا الإطار هو إطار الصراع الذي كان قائما بين المجددين والمحافظين في تونس وهذا الصراع الذي أشرنا له سابقا هو تواصل وصدى وإثراء لحركة النهضة التي كان يقودها محمد عبده وجمال الدين الافغاني ورشيد رضا في المشرق العربي. وقد وجدت هذه الحركة صدى لها كبيرا في تونس كما هو

* باحث بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية

معروف وكانت هذه الحركة تدعو الى الإصلاح الديني وتخوض في مسألة الأولياء والكرامات وزيارة القبور الخ... وقد زار محمد عبده البلاد التونسية مرتين وكانت مجلة العروة الوثقى تصل إلى بعض المشتركين التونسيين ـ السنوسي، بيرم.... ـ وكذلك مجلة «المنار» التي كانت تدار على العشرات بين الناس...

كما قام بعض العلماء التونسيين برحلات إلى المشرق الذي كان يعتبر المنبع والمرجع **ومنهم الثعالبي** الذي ارتحل إليه سرا سنة 1898 وتأثر هناك بأفكار عبده والكواكبي وعاد الى تونس ... غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ويعجب بالكواكبي ويدعو الى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود....» كما يقول الشيخ الفاضل بن عاشور.

ـــ لكن زعماء الإصلاح بتونس لم يكتفوا بترديد ما يقال ويكتب في الشرق بل كانت لهم اسهاماتهم المتميزة ولم تكن النهضة المشرقية سابقة في الزمن بكثير النهضة التونسية كما أن هذه الأخيرة تأثرت بمحيطها الجديد منذ سنة 1881 فتأثرت بالحركات السابقة الفرنسية القائمة بتونس أي بفروع الأحزاب الفرنسية وخاصة منها في ما يخص موضوعنا هذا الحزب الجمهوري الراديكالي والراديكالي الإشتراكي وهو حزب لائكي وتحرري يقاوم الفكر الديني التقليدي ويحارب مؤسساته بجميع أشكالها ويقاوم التعصب ويدعو إلى التسامح مرجعه في ذلك مبادىء ثورة 1789.

كما تأسست في تونس بتشجيع من هذا الحزب تنظيمات اجتماعية فكرية تتبنى نفس المبادىء مثل المحافل الماسونية وجمعية الفكر الحر التي كان ينتمي إليها ورابطة التعليم ومنها

من كان يدعو الى التحرر الكامل من الاديان على اختلاف أنواعها أي الى الإلحاد.

ولكن بالرغم من كل هذه العوامل المناسبة فقد بقي المصلحون يمثلون أقلية وحافظ التقليديون على مواقعهم وقوتهم خاصة في جامع الزيتونة....

وقد تمكنوا في مارس 1904 من إصدار مجلة غايتها التصدي لتأثير «المنار» وهذه المجلة هي السعادة العظمى كما قدموا في نفس السنة عريضة للباي يهاجمون فيها مجلة رشيد رضا التي ما فتئت على حد قولهم «تهدم من الأساس مبادىء الشريعة الإسلامية السوية.

وفي جويلية 1904 تواصلت هاته الحملة التي كتبت: «ان مجلة المنار» «فتحت باب الفساد».

وطالب المحافظون في عريضتهم بمنع دخول المنار الى تونس وبمنع الصحف والمجلات التونسية من الخوض في المسائل الدينية في اتجاه مختلف عما يقره علماء جامع الزيتونة واقتصار الدوريات على معالجة المسائل الأدبية البحتة.

- ويتزعم هذا الشق أغلبية مدرسي جامع الزيتونة ورجال الإفتاء والقضاء ومشائخ الطرق الصوفية وسيكون كل هؤلاء وراء التهم الموجهة لعبد العزيز الثعالبي في أواخر جوان جويلية 1904.

II. التهم

من قدمها؟

8 أشخاص قدموا شهادات عدلية ضمنوها عدة تهم تتعلق كلها بقضايا لها علاقة بالدين

وهـؤلاء الأشخـاص هم: عمـر بن عجـرة وحميـدة كشك والبشير القماطي ومحمـد بن سليمان العبـدلي والعـدل الشيخ محمد بن علي الشـواشي وأخوه محمد صـالح الشواشي وأحمد القبار

أما العدلان اللذان قبـلا تسجيل هاته التهم فهما يوسف بن الخوجة والعربي الكبادي.

ـ أما التهم فهي:

1 ـ ملاحظات تتعلق بالقرآن وبالنبي

أتهم الثعالبي بأنـه قال «إن القرآن كتاب تجاوزتـه الأحداث ولا يمكن له مسايرة العصر وإن مآسي الأمـة الإسلامية متأتية من تعلقها المقيت بهذا الكتاب الذي ظهر منذ 13 قرنا».

كما قـال ان بعض سـور القرآن غير فصيحـة مثل سـورة الفلق لعدم تناغم مفرداتها وإنه ليس في حاجة للديانة في جامع الـزيتونـة لفهم القرآن هـذا القرآن الـذي فهمه أمي من عـرب القرن السابع».

2 ـ مناقشة بعض تعاليم الإسلام

قال إنـه ليس هناك فـرق بين الحيوان المذبوح على الطـريقة الاسلامية وحيوان نحر بطريقـة أخرى. كما أنه قال أنه يحبذ الجلوس في الحانات على حضور مجالس الذكر (الطرقية) .

3 ـ نقد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان

قال: إن عثمان هو أول من أدخـل الحكم الفردي في الإسلام

وكذلك المحسوبية والإنحياز للأقرباء كما أن من عارضوه كانوا على حق ويجب ان تقام لهم النصب التذكارية.

4 ـ التهجم على الطرق الصوفية وأتباعها

تهجم الثعالبي خاصة ـ حسب الشهود ـ على الولي عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية (1166) الذي لعنه وقال أنه ابن زنى ومشعوذ وقد يكون توجه بالعبارات التالية لمتسولة كانت تتشحذ باسم سيدي عبد القادر: «لعن الله دينك ودين عبد القادر»

كما تهجم الثعالبي على مشعوذ يتسكع في شوارع مدينة تونس يقال له علي جابر الشريف ووصفه بالكلب الوسخ ونفى نسب الشرف عنه من كان يقف وراء هذه الشهادات ومن حررها؟

ومن حرض مقدميها على تقديمها؟

لا نجد في الوثائق الرسمية جوابا جليا، لكن من الواضح أنهم كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل مشايخ الزيتونة وأصحاب الزوايا ورجال الافتاء مثل أحمد بلخوجة فقد ورد في جريدة القلم: «إن محاكمة الثعالبي هي ردة فعل شيوخ الأمة الإسلامية على فقدانه لصوابه...»

وقالت «الحاضرة» إن أول من قام بالتتبعات هم مشائخ الفتوى والقضاء الشرعي»

لكن هل كانت حقا مؤامرة حيكت من لا شيء؟

ـ تقول D-T إنها فعلا كانت مؤامرة إذ كتبت «أنها تعرف جيدا من حاك هذه المؤامرة ضد هذا الصحفي التونسي الذي هو مغفل بقدر ما هو متحرر» كما سبق لهذه الصحيفة ان

تحدثت عن «الضجة التي أثارتها أفكار الثعالبي في أوساط المفتين والقضاة حماة الشريعة المخلصين»

- ونحن نرى أن المكيدة موجودة ولكنها اعتمدت على أشياء حقيقية وثابتة وهي أفكار الثعالبي التحررية فيما يتعلق بضرورة تطوير الدين الإسلامي وتخليصه مما علق به من أوهام وخرافات كما أن الثعالبي كان لا يتحرج من الكلام في ذلك في مقاهي الحلفاوين وساحاتها حتى أن إحدى الصحف التونسية قالت إن الثعالبي جعل من مقاهي مدينة تونس منابر لنشر أفكاره المسمومة».

— كما جاء في تقرير قدمه شيخ المدينة قبل المحاكمة ان للثعالبي محلا بالحلفاوين يتوافد عليه الناس للمذاكرة في إبطال العقائد وإفساد الأديان وأنه بذلك تكون حزب كبير من الشبان»

III - الإيقاف والمحاكمة

أحيل الثعالبي على المحكمة الشرعية بتهمة «الكفر والتهجم على الدين الإسلامي» واستجوبه القاضي والمفتون يوم 29 جوان 1904 حول التهم الموجهة إليه: «إن هذه التهم باطلة أجاب الثعالبي وكتاباتي تدل على ذلك، صحيح إنني أنتقد طريقتكم في العمل كما أنتقد تصرفات مشائخ الطرق»...

ثم سمح للمتهم بالإنصراف على أن يعود في اليوم الموالي واجتمع المجلس على حدة واستعد لإصدار عقوبة الإعدام ضد الثعالبي كما تنص على ذلك التشاريع الإسلامية؟

لكن القضية عرفت هنا تطورات جديدة

— فقد رفض الثعالبي العودة الى المجلس الشرعي وخير

الإتصال بـــ Henry bruyot المديــر الفرنسي لمصــالح العدليــة التونسية ونائب الكـاتب العام للحكومة B. Roy الذي كــان في إجــازة بفرنســا وقــد اعتبر هذا المســؤول أن الثعــالبي يحاكم لقضيــة لها علاقــة بحــرية الــرأي فطلب من الشرع التخلي عن القضية واعــدا بتتبع المتهم أمام محكمــة أخرى وأمر بإيــداعه السجن المدني (نهج الكنيســة) حيث عومل فيما يبــدو معاملــة حسنة.

ـ وهنا ثــارت ثائرة رجال القضــاء الشرعي الــذين أيقنوا أن الثعالبي سيُفلت من قبضتهم فهددوا بتقديم استقالتهم جماعيا فقبل bruyot ذلك وقال لهم: «يمكن لي ايجاد غيركم في ظرف 24 ساعة!»

ـ المظاهرات

أثنــاء تنقل الثعــالبي بين السجن ومصالح العــدليــة وقعت مظاهراتان في الأسواق للتنديد به والمطالبة بإعدامه

فمن شارك فيها؟

يبدو أنهم الســوقة وسفهاء العامــة والرعاع وقــد حركتهم أيادي خفية أشرنا اليها.

فالمظــاهرة الأولى مثــلا قادها المدعــو نوار شيخ العيســاوية بتونس وضمت حوالي 1,000 شـخص.

ـــ أما الثانية التي وقعت يوم 5 جويلية 1904 فقد أوردت «الرشدية» في شأنها ما يلي: «مــا إن خرج الثعالبي من المحكمة حتى صفق المتظــاهــرون وراحـــوا بصــوت واحــد يلعنــونــه ويشتمونه وكان أحدهم يجمل صورة الحضرة العلية وقد كتب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ لعنك الله أيها المارق»

أمــا التعــاليق فيقــول في شأنها: «قمت الى احــدى النــوافــذ

للمشاهدة فرأيت الأرض تموج بالخلائق... حتى ظننت أنه لم يبق أحد في أنحاء المدينة وما جاورها.»

بعد هدوء الخواطر أمر الكاتب العام للحكومة الذي اطلع على الملف وهو في إجازته بمقاضاة الثعالبي أمام محكمة «الدريبة» وهي محكمة تونس الجهوية ولا تنظر الا في القضايا الثانوية التي لا تتجاوز العقوبة فيها 100 فرنك خطية و3 أشهر سجنا.

وهي مبادرة يجب الوقوف عندها ومحاولة فهمها .

- إن السلط الفرنسية كانت مقتنعة بأن قضية الثعالبي هي قضية رأي ولكنها لم تأمر بإطلاق سراحه تخوفا من ردود فعل العامة وخاصة مشائخ الطرق الصوفية وأتباعها الموجودين في كل أنحاء البلاد كما أن Roy نفسه كان صديقا لهؤلاء وكانت له علاقات متميزة مع البعض منهم مثل قدور الميزوني شيخ الطريقة القادرية بالكاف الذي ساعده على احتلال المدينة سنة 1881.

- ولكن من جهة أخرى لا ننسى أننا في عهد الجمهورية III وهي الجمهورية المعروفة بلائكيتها خاصة في فترتنا حيث ظهرت قوانين الجمعيات وفصل الدين عن الدولة... ووقعت متابعة رجال الدين وتجريدهم من أملاكهم ومؤسساتهم.

- وهكذا نفهم الموقف الوسط الذي وقفته الإدارة في هذه القضية كما لا نَنْسَى أن السلط الفرنسية لم تكن لها مشاكل ذات بال مع الثعالبي الشاب الذي لم يعرف بمعاداته للحماية بل بالعكس هناك من اتهمه بالتواطؤ معها.

وقعت محاكمة الثعالبي في جلستين 16 جويلية و23 جويلية وترأس المحكمة صالح عباس بعضوية محمد بن بوبكر

والعروسي الحداد والمترجم هادي السبعي ورافع عنه محاميان مشهوران Cesar Ben Athar و Louis كما تدخل الثعـالبي نفسه فتطـرق الى خلفيات القضيـة وحقد المحـافظين عليه وتفـانيهم معهم في الكرم.

وفي آخر جلسة 23 جويلية حكم عليـه بشهرين سجنا بداية من يوم ايقافـه يوم 28 جـوان وسجن بزنزانـة باردو وزاره هناك العديـد من أصدقائه ومنهم C. Ben Attar الذي ذكر أن فكرة تأليف كتاب «الروح التحـررية في القرآن» تكونت لديهما أثناء هذه الزيارات.

- اثـر خروجه مـن السجن زار مقرات الجرائد التي دافعت عنه واقتنت له صـورة مع Ben Attar وغيره بقيت معروضـة لمدة طويلة عند المصور الشهير Sole الصـادرة بتونس.

IV موقف الصحف التونسية وردود فعلها

الحديث هنا سهل لأن التباين كان واضحا بين الصحف العربية والصحف الأروبية فالصحف الأولى وقفت ضده بدون استثنـاء حتى الصواب والحاضرة وكل هـذه الصحف تهجمت على شخصه بدون أن تناقش أفكاره

فقـد اعتبرتـه القلم زعيما لشرذمـة من الجهلـة المارقين عن الدين الذيـن دعتهم الفاقة والبطالة إلى الطعـن في الكتب المنزلة ومن شرف النبوة» وقالت أظهـار الحق هو رئيس تلك الجماعة ذات (المكابرة والعناد الخبيثة الظن، السيئة الإعتقاد» أمّا رشيد رضا فقد كان من المتوقع أن يقف الى جانبه لكنه رفض وامتنع حتى عن الكتابـة في القضية أو حتى عن نشر رسالـة الثعالبي المطولة في «المنـار» معتبرا أن ما وقع هو نتيجة «ذرايـة لسانه وجرأة جنانه.

- أما الصحف الفرنسية وكذلك الايطالية فقد تولت الدفاع عنه وخاصة الصحف الراديكالية معتبرة اياه: «مصلحا كبيرا» ورجلا مثقفا وقع ضحية الجهل والبغض الأعمى»

- لكن هناك من الصحف من استغلت هذه المحاكمة لمهاجمة المحاكم الشرعية والتهكم عليها معتبرة إياها بقايا عهد بائد مثل T.F التي كانت تدعو الى إدماج تونس في فرنسا وترى في هذه المحاكم علامة من العلامات المتبقية للسيادة التونسية ولذاتية البلاد التي تريد القضاء عليها...

- الخاتمة:

هذه المحاكمة تدل على أن فكر عبد العزيز الثعالبي في سن الشباب كان فكرا إصلاحيا متأثرا بالنهضة المشرقية كما عرف بها زعماؤها محمد عبده ورشيد رضا وحتى ربما قبلهما محمد بن عبد الوهاب وهي نهضة تركز على البعد التربوي قبل الاصلاح السياسي.

وسيتطور هذا الفكر تدريجيا باتجاه العمل السياسي ذي البعد الوطني المناهض للاستعمار عندما يحتك الثعالبي بالنخب التونسية الجديدة فنشط ضمن حركة الشباب التونسي ثم يؤسس بمعية مجموعة من الوطنيين الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920.